

## وقفة مع الشيخ ابن عربي و مؤلفاته

محمد كمال

**ما أظن** أحداً من أعلام تاريخنا الفكري لقي من كثرة الجدل عنه وامتداد الخلاف فيه كما لقي الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وإن كنت أزعّم أن ذلك لم يكن ناجماً عن آراء ابن عربي وأفكاره التي كان يراها الناس في غاية الجرأة والتطرف فحسب، وإنما هو ناجم أيضاً عن موقف الناس قبل ابن عربي وبعده من الاتجاه الصوفي بشكل عام.

فقد انقسم الناس في شأن هذا الرجل انقساماً بيناً، وتفرقوا في أمره شيعاً، ونعتوه بشتى صفات المدح وصفات الذم، فمنهم من رفعه إلى مقام الصديقين والأولياء. ومنهم من هوى به إلى مصاف الزنادقة والملحدين.

ولئن رمى كل من الحلاج والسهروردي بالمروق من الدين والخروج على الشريعة، واتهما بخلل في الإيمان والعقيدة، حتى تم الحكم عليهما بالإعدام، لقد رمى ابن عربي بأشباه هذه التهم، وسحبت كتبه من أيدي الناس، وتم إحراقها أو تمزيقها أمام المساجد وفي الساحات العامة، ويصرح بذلك عمر بن الوردي في (تنمة المختصر) إذ يقول:

"في هذه السنة - أي سنة 744هـ - مزقنا كتاب (فصوص الحكم) بالمدرسة العسرونية بحلب عقيب الدرس وغسلناه، وهو من تصانيف ابن عربي، تنبيهاً على تحريم قنيتة ومطالعة".

ويبدو أن الشقة أخذت تنتسح بين علماء الفقه والشريعة وبين المتصوفة وأهل الطريق منذ أن برز ما يسمى بعلم الظاهر وعلم الباطن، وعلم الشريعة وعلم الحقيقة، حتى إن بعض هؤلاء المتصوفة أنفسهم كانوا يدركون ما يمكن أن يتهدد الأمة من خطر إذا هجر الناس العلم الشرعي، وركنوا إلى المناجاة واستكانوا إلى التأمل، زاعمين أن الوصول إلى الحضرة العلية لا يحتاج إلى عقل وأع يرشد إلى التعاليم الإسلامية والعبادات المفروضة، وإنما يحتاج إلى قلب صاف ورياضة روحية، بهما تتحقق للعبد معرفة ربه، وبهما ينال رضاه، فكان أبو بكر الشبلي المتوفى سنة 247



كان هذا في الشطر الأول من حياته، وهو الشطر الذي قضاه في الأندلس وبلاد المغرب، وقضى جزءاً منه في بلاد المشرق، إلا أنه لم يحاول آنذاك أن يضع مؤلفاً واحداً عاماً يضم عناصر مذهب في الفلسفة الصوفية، وإن كان يبدو من كثير من مؤلفاته السالفة الذكر أن هذه العناصر كانت في طريقها إلى التجمع والترتيب في ذهنه.

أما الشطر الثاني من حياته وهو الذي قضى معظمه في دمشق وبعضه في مكة، فقد ظهر فيه إنتاجه الناضج الخصب في ميدان التصوف بوجه خاص، وفيه وضع كتابه (فصوص الحكم) الذي يمثل خلاصة مذهب ظل يعتل في نفسه نحواً من أربعين عاماً، وهو لا يجرؤ على إعلانه والجهر به في جملته ولا يخرج في صورة كاملة، فلما ظهر (الفصوص) سنة 627هـ أذهل المسلمين وأثار في نفوسهم الحيرة والشك، كما أثار الإعجاب والتقدير.

ولم يكن ظهور الفصوص على هذه الدرجة من النضج الفكري والتألفي مجرد مصادفة أو طفرة لم يسبق لها تمهيد، فقد مهد للأفكار الرئيسية فيه في أكثر من كتاب كما أسلفنا، ولكن أعظم تمهيد له كان في كتابه (الفتوحات المكية) الذي نرى فيه بذور هذه الأفكار التي تعهد إنماءها وإنضاجها في الفصوص، وأظهر ما يكون ذلك في الباب الذي عقده في الجزء الثاني من الفتوحات في معراج "التابع" و "الفيلسوف".

والتابع هنا هو الصوفي المسلم الوارث للعلم الباطن عن النبي صلى الله عليه وسلم، والفيلسوف هو صاحب النظر، والفيلسوف لا يظفر في معراجه إلا بالعلم بمظاهر الحقيقة، ولا ينتهي إلا بالحيرة والخيبة.

وأما التابع فتكشف له حقيقة الوجود انكشافاً ذوقياً لا يتطرق إليه شك. ومرشد الفيلسوف في معراجه "العقل" ممثلاً في عقول الأفلاك التي يلتقي بها واحداً إثر واحد، ومرشد التابع "الوحي" ممثلاً في أرواح الأنبياء الذين يلقاها فيفضي كل منهم إليه بشيء من تعاليمه الباطنية، فموسى مثلاً يتحدث إلى التابع عن وحدة الأديان، ويوسف يتحدث عن الجمال المطلق وصور الجمال المقيد، وأدم يتحدث عن العلية والخلافة الروحية... ولكل واحدة من هذه المسائل نظيرها في (فصوص الحكم) الذي قسمه ابن عربي إلى سبعة وعشرين فصلاً يعالج في كل فصل منها حكمة من الحكم، أي جزءاً أو جانباً من جوانب مذهب، وينسب كل حكمة إلى نبي من الأنبياء.

وفي هذه الفصوص يقرر ابن عربي أصول مذهب في وحدة الوجود، وفي العلاقة بين الحق والخلق، وحقيقة الذات الإلهية، والتنزيه والتشبيه، ومعنى الحرية الإنسانية، ومسألة القضاء والقدر. إلى غير ذلك من الأمور التي اكتملت صورها في ذهن ابن عربي فعرضها عرضاً محكماً لا يعتريه تشكك ولا يخل به استطراد.

ولقد تجرد لتحقيق هذا الكتاب وشرح معانيه وكشف غوامضه والإبانة عن مذهب مؤلفه واحد من أبرز المشتغلين في الفلسفة الصوفية في هذا العصر هو الدكتور أبو العلا عفيفي الذي بلغ في عمله هذا مبلغ العالم المحايد والمحقق المنصف، فأغنى بذلك المكتبة الإسلامية العربية، ووضع لبنة

جديدة في صرحها الشامخ<sup>(١)</sup>.

أما كتاب (الفتوحات المكية) فهو أوسع كتب الشيخ مادة وأكثرها شهرة وأحواها لعلوم ابن عربي ومعارفه وآرائه وكشوفه، ففيه بغية كل مجتهد في الشريعة، أو مفسر للقرآن، أو شارح للأحاديث النبوية، أو متكلم، أو محدث، أو لغوي، أو مقرئ، أو معبر للمنامات، أو عالم بالطبيعة وصناعة الطب، أو عالم بالهندسة، أو نحوي، أو منطقي، أو صوفي، أو عالم بعلم حضرات الأسماء الإلهية، أو عالم بعلم الحروف.

وقد أمضى الشيخ في تأليفه ما يزيد على ثلاثين سنة، وجعله في ستة أقسام رئيسية أسماها فصولاً، وتدور موضوعاتها جميعاً حول الإنسان في بعده الإلهي وبعده الإنساني. وهذه الفصول هي: المعارف، والمعاملات، والأحوال، والمنازل، والمنازلات، والمقامات. إلا أن هذه الموسوعة الروحية الضخمة يسودها التفكير والاضطراب، كما يسودها الاستطراب وتداخل المسائل بعضها في بعض. ويعترف ابن عربي نفسه بهذا حيث يقول: "اعلم أن ترتيب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا نظر فكر، وإنما الحق تعالى يملئ علينا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره. وقد تذكر كلاماً بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده"<sup>(٢)</sup>.

وقد طبع هذا الكتاب ثلاث مرات في القاهرة كان آخرها عام 1329 هـ. إلا أنها طبعت تفقراً إلى كثير من أصول التحقيق العلمي والإخراج الفني، إلى أن قيض الله لهذا السفر الجليل عالماً محققاً تولى خدمة الشيخ الأكبر والسهر على مؤلفاته هو الدكتور عثمان يحيى رحمه الله وأجزل له الثواب، فانبرى أولاً لوضع كتاب جمع فيه أسماء ما تناثر في مكتبات العالم من مؤلفات ابن عربي<sup>(٣)</sup> فذكر تاريخها ومواضع وجودها وأرقامها، بعد فحص دائب ونظر مستمر، ثم أخرج هذا الفهرست القيم عام 1992م فكان عوناً للدارسين وسنداً للباحثين.

ثم انبرى ثانياً لتحقيق (الفتوحات المكية) على الوجه الذي يرضي الفتوحات وصاحب الفتوحات، فصدر منه سبعة عشر مجلداً من أصل سبعة وثلاثين، وكل مجلد مقسم أسفاراً، وكل سفر مذيّل بالفهرس المصنّف إليها فهرسان عامان أحدهما للمصطلحات الفنية والآخر للأفكار والمباحث الرئيسية، وهما معاً بمثابة المفتاح لدراسة مذهب ابن عربي على نحو موضوعي وشامل، فغداً الفتوحات بذلك واضح المحجة بين المعالم، بعد أن كان أشبه بالغابة العذراء التي يضل زائرها بمسالكها اللاحية، وحراجها الكثّة المنيرة كما يقول الدكتور عثمان يحيى رحمه الله.

ولكن قارئ تراث ابن عربي قد يفاجأ باستغراق المعنى واعتياص العبارة، فيقدم على حذر، ويحجم على ظمأ، وهو يبصر أمامه لغة غير اللغة وبلاغة غير البلاغة، وكأن الشيخ الأكبر كان يحس أن هذه الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية لا يمكن التعبير عنها إلا

<sup>(١)</sup> صدر عام 1946م.

<sup>(٢)</sup> الكبريت الأحمر: ص 4-5.

<sup>(٣)</sup> بلغ تعدادها قرابة 900 مؤلف بين رسالة وكتاب.

باخترق مألوف اللغة بدلالاتها المعجمية الموروثة، ومألوف البلاغة بتتويعتها البيانية المعهودة، فعمد إلى الرمز والإشارة والإيماء، واصطنع لنفسه مصطلحات لا تتواءم مع معانيه الذوقية وكشوفه الوجدانية، وهو مع ذلك لم يشأ لقارئ نثره وشعره أن تتخطفه الظلمات وأن تشبّه عليه السبل، فنراه يعمد أحياناً إلى بعض من الشرح وبعض من التفسير، ويوصي قارئه بأن يوجه خواطره إلى الباطن لا إلى الظاهر، فيقول في أول قصيدة من ديوانه (ترجمان الأشواق):

كل ما أذكره من طلل	أو ربوع أو مغان كل ما
أو نساء كاعبات نهـد	طالعـات كشـموس أو دمي
صفة قدسية علوية	أعلمت أن لصديقي قدما
فاصرف خاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلمـا

ولا شك في أن هذه اللغة المستحمة في ينابيع النور ما كانت لتكون عند ابن عربي لولا امتلاكه تلك القوة الإبداعية الخارقة التي هي قوة الخيال، والتي بها تظهر المعاني المخبوءة في صميم الأشياء. يقول الدكتور عبد الكريم اليافي وهو يتحدث عن فنية التعبير عند ابن عربي:

"نحن هنا أمام قوة أو ملكة تفصل بيننا وبين الواقع هي الخيال الفعال، وهو وسيلة من وسائل المعرفة حقيقية كوسائل الحواس في تكوين المعرفة.. فالإدراك بالخيال تعرية للأمور الحسية من مادتها التي تقع تحت الحس وجعلها ذات شفوف فكري مصقولة كالمرأة الصافية"<sup>(4)</sup>.

وبعد، فإن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي سيظل في تاريخ الفكر الإسلامي ظاهرة فعالة من ظواهر المعرفة الحدسية الذوقية، ولا ندري هل كان يسعى إلى إعادة صياغة هذا الفكر في نظريته إلى الخالق والكون والإنسان، فإذا كانت قضايا الفكر تبدأ عادة بسؤال يبحث عن جواب، فقد يكون من الخير لنا وللفكر أن يظل ابن عربي سؤالاً حائراً يرفرف في سماء الروح، ونحن نتملى خفق جناحيه بكثير من الدهشة وكثير من العذوبة.



<sup>(4)</sup> التعبير الصوفي ومشكلاته: ص 144.